المشرق

نصير الكنيسة والدين

الطوبويّ الكردينال روبرتس بلرمين

لمحة تاريخيّة للاب لويس شيخو اليسوعيّ

قد أقامت مدرستنا الكليّة في هذه المدّة الاخيرة اعيادًا حافلة دامت ثلثة أيام بنسبة تطويب وليّ الله وسليل الرهبانيّة اليسوعيّة السعيد الذكر الكردينال روبرتس بلرمين. فظهرت وَحْدة الكنيسة الكاثوليكيّة بوَيْنقها وبهائها مع اختلاف طقوسها الجليلة ورُتبها الشائقة وتخضّبت فيها آية النبيّ داود القائل عنها (مز ٤٤: ١٢) أنّها الملكة التي زُفّت الى عريسها الالهيّ موشّاةً بمختلف الرياش الثمينة. وقد تجارى فرسان البلاغة في مضامير الحقّ لإطراء ذلك الرجل العظيم الذي شرّف عصرهُ بعلومهِ وفضائلهِ فعرف جمهور السامعين ما كان لهُ في حياتهِ من المقام الرفيع والمنزلة السامية في كنيسة الله وفي أعين معاصريهِ ثمّ ما شرّفهُ بهِ عزّ وجلّ من الكرامات والمعجزات بعد وفاتهِ

*

قد سبقت لنا في المشرق (١٩ [١٩٢١]: ٥٧٥—٥٧٩) خلاصة ترجمة هذا الرجل المفضال فنُحيل القرّاء الى مراجعتها كما أنّنا اثبتنا في العام الماضي (٢١[١٩٢٣] : ٤٠١—٤٠٧) حكم الكرسيّ الرسوليّ في سموّ فضائلهِ ونَظْم اسمهِ في سلك الطوبويين الابرار. واليوم نقتصر على وصف ما قام بهِ ذاك الجهبذ الهمام كحامٍ للكنيسة ونصيرٍ للتعاليم الكاثوليكيّة

لمّا انضوى بلرمينوس الى الرهبانيّة اليسوعيّة سنة ١٥٦٠ وعمره لا يتجاوز الثاني عشرة سنة كانت الكنيسة هدفاً لسهام اعدائها. فكان لوثاروس († ١٥٤٦) أضرم بسعير ثورته قسماً كبيراً من المانية ونفث كلوينوس († ١٥٦٤) سموم بدعته في ضواحي فرنسة وفي سويسرة وناشبَ هنريكس الثامن († ١٥٤٧) الحرب على الكثلكة فسفك دماء الوفٍ من أنصارها وكلّهم على اختلاف نزعاتهم يتّفقون في محاولة دكّ اساس الكنيسة وثلّ العرش البابوي. فارسل الله عضداً لبيعته القديس اغناطيوس دي لويولا وفرقتهُ التي جعلت دينها ودَيدنها الدفاع عن الصخرة البطرسيّة الموعودة بالثبات على كلّ قوّات الجحيم

وما كان بلرمينوس الّا احد افراد ذلك الجيش المنظّم بيد انهُ من فرسانهِ الابطال تجنّد فيهِ اربع سنين بعد وفاة قائدهِ فكأنّهُ ورث روحهُ الباسلة وتحفّز مثلهُ لردّ هجمات المعادين وكسر شوكة المبتدعين فجاء سلفاً اسمهُ روبرتس اي الشديد القويّ منبئاً عن اعمالهِ. فما كاد ينتهي من دروسهِ اللاهوتيّة وهو لم يتّسم بعد بسمة الكهنوت حتى عرف الرؤساء ما خوّلهُ الله من توقّد الذهن وشدّة العارضة ومعرفة آداب الجدال ليُفحم بأجلى البراهين ذوي الشقشقة المموّهة والسّفسطة الباطلة

بلرمينوس في لوفان (١٥٦٩—١٥٧٦)

كانت بلجيكة لوقوعها في حدود البلاد النازعة الى البروتستانيّة معرّضةً لغارات اهل البدع. فأرسل الطوبويّ الى عاصمتها لوفان ليذود عن حياض التعاليم الكاثوليكيّة. وكانت جامعة لوفان قد شربت شيئاً من ضلال كبير زعمائها المدعوّ ميشال بايُوس الذي ضربت الكنيسة تعاليمهُ بالحرم اذ خلط بين خواص الطبيعة البشريّة والنعمة الالهيّة الفائقة الطبيعة فجدّد بدعة بيلاجيوس ومهّد الطريق لاضاليل جنسانيوس. فلمّا جلس بلرمينوس على كرسيّ التعليم بازائهِ في مدرسة الآباء اليسوعيين نظراليهِ انصار بايُوس بعين الازدراء والتحقير وهو شابٌّ ضئيل البنية نحيف الجسم. الّا انهُ بعد ايّام قليلة شاع في المدينة فضلهُ فتقاطر الدارسون لاستماعهِ فوجدوهُ جامعاً بين العلم الواسع والتواضع التامّ ودماثة الاخلاق فأعجبوا بهِ وشهروا بين اقرانهم جليل مناقبهِ. بل بلغ امرهُ مسامع انصار البدع البروتستانيّة في بريطانية العظمى وهولندة وفرنسة

فقصدوا لوفان لحضور دروسه ثم عادوا الى بلادهم وهم لسان واحد في الثناء على سعة معارفه وصحة براهينه وكثيرون منهم الذين كانوا يطلبون الحق بنزاهة واستقامة ارتدّوا على يده الى حجر الكنيسة الكاثوليكية . ومما أكسب له قلوب المشايعين لبائيوس والمتنصرين لاضاليله انّ بلرمينوس كان يأنف عن كل ما يمسّ كرامة الاشخاص وانما كان يكتفي بتفنيد مزاعمهم الباطلة وبتأييد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية متتبعاً سلسلة عقائدها جيلاً فجيلاً الى ان يبلغ الى عهد الرسل تلامذة المسيح فينجلي لهم الحق باتصاله الى معينه وينبوعه الاصلي

وكان الطوبوي مع قيامه بوظيفة التعليم يخطب في أيام الآحاد والاعياد لجمهور المؤمنين المتزاحمين في كنيسة الدير لاستماع كلام الله فيزدادون حماساً في دينهم

بلرمينوس في الكلية الرومانية (١٥٧٦—١٥٨٨)

سبع سنين قضاها بلرمينوس في تلك الاشغال الشاغلة التي كان نطاقها يتسع كل يوم فيزيد رعيها على عاتقه حتى انهكت قواه وخاف الرؤساء على حياته فاستدعاه الرئيس العام الى رومية فأنعشه هواء الوطن ورأى نفسه مستعدة لأداء خدم جديدة للكنيسة

وكان ارباب مدارس فرنسة وايطالية تلحّ في الطلب لدى المراجع الرسمية ليُرسل اليها بلرمينوس لكن الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر ورئيسه العام الاب سركوريان اذ رأيا ما احرز له استاذ لوفان من الشهرة بالدفاع عن عقائد الايمان بازاء المبتدعين اتفقا على فتح فرع جديد للتعليم في الكلية الرومانية تُعهد ادارته الى بلرمينوس . فأُنشئ فيها مكتب خاص للجدليات يُفنَّد فيه رسمياً وعلى طريقة علمية كلُّ ما ابتدعه البروتستانت تضليلاً للعقول . فكان طلبة المدرسة الجرمانية والمدرسة الانكليزية الذين يتخرّجون في رومية يحضرون تعليمه قبل رجوعهم الى اوطانهم ويأخذون عنه فنّ الجدال فيتمكّنون من مناهضة المبتدعين في بلادهم . فصار لدروسه شهرة طائرة بلغ صداها بعيداً فكان علماء المدينة والاجانب يتألّبون ليشتفوا الآذان بحضور محاضراته . فتقدّم اليه الرؤساء ان يمثل تلك الدروس للطبع فلبّى الى دعوتهم . وطُبعت تلك المحاضرات في اربعة مجلدات ضخمة ضمّنها من

الادلّة الباهرة والحجج الراهنة ما ازال كلّ الشُبهات وقشع كلّ الظلمات فانتشر ذلك التأليف في كلّ الانحاء واختار البروتستانت في امرهِ فمقدوا المجامع وشكّلوا اللجن ووعدوا بالمبالغ الوافرة كلّ من يحاول نقض تلك البراهين وتزييف تلك التعاليم فضاقوا ذرعاً ولم تأتِ كتاباتهم المتعدّدة بشيء يضعف بيّنات ناصر الكنيسة فلم يجد المبتدعون للنجاة من تلك النبال الرشيقة الّا وسيلةً واحدةً بان يستمدّوا من زعماء شيعهم امرًا لازباً تحت طائلة الموت بمنع الكتاب عن الدخول الى انحاء بلادهم . ولمّا كان كلّ ممنوع متبوعاً تفنّن الناس في الحصول على ذاك التأليف والتمعّن في حقائقهِ فارتدّ كثيرون الى ايمان اجدادهم بعد وقوعهم في أشراك البروتستانت حتى انّ احد كبار الكتبيين في لندن صرّح لدى بعض اصحابهِ بأنّ مجادلات بلّرمينوس اربحتهُ من المال ما لم يكسبهُ بجميع الالوف من المطبوعات

والحقّ يقال انّ تلك المجادلات مع تقدّم العلوم الدينيّة في عهدنا لا تزال كسلحةٍ يقصدها ارباب الدين فيأخذون منها عدّتهم لمحاربة آل الضلال وقد تكرّر طبعُها دفعاتٍ عديدة حتى في حياة مؤلّفها . فكان المبتدعون يطلقون على المتشبّثين بتعاليم البيعة اسم «البلّرمينيين» وكفى بهِ تنويهاً بعظم شرف كاتبها الذي اوضح كلّ مادّةٍ بادلّة عقليّة ونقليّة يدركها بسهولة العلماء والبسطاء الكبارُ والصغار فيزهق الباطل ويُمحص الحقّ لكلّ من لا يكابرهُ . ومما يدلّ على حصافة عقلهِ وجودة نظرهِ انّ كثيرًا من المطالب التي دافع عنها اثبتتها الكنيسة بعد ذلك ونظمتها بين عقائد الايمان كالحبل بالعذراء مريم بغير دنس الخطيئة الاصليّة وعصمة الحبر الروماني عن الغلط في الايمان والآداب وسلطانهِ الروحي على الدول والممالك وغير ذلك

بلّرمينوس وهنريكوس الرابع ملك فرنسة (١٥٨٩—١٥٩٠)

كان هنريكوس الرابع قبل ان يتبوّأ سُدّة الملك في فرنسة منتمياً الى الشيعة البروتستانتيّة . فسعى مدّة عشرين سنة (١٥٦٩—١٥٩٠) الى الجلوس على عرش الدولة لولا العصبة الكاثوليكيّة (la Ligue) التي تصدّت لهُ وكان المنتمون اليهِ ينشرون في تلك الاثناء المنشورات المُذهلة ليدافعوا عنهُ باخسين حقوق الحبر الروماني . فوكّل البابا سكستوس الخامس الى بلّرمين ان يردّ عليها ففعل وخدم الكثلكة في فرنسة

خدمةً مشكورة: على انَّ هنريكوس الرابع لم ينتم عليهِ فعلهُ لما رأى من انتصافهِ ونزاهتهِ ولما اختبرهُ من اعتدالهِ في باريس لما قصدها رفيقاً للكردينال «غايتاني» سفير الحبر الاعظم الى هنريكوس الرابع كما انهُ شكرهُ كأحد المتوسطين للصلح بينهُ وبين الكرسيّ الرسولي ولتأييدهِ ثانياً كملك فرنسة الشرعيّ بعد ارتدادهِ الى الكثلكة

بلرمينوس والدولة البندقيَّة (١٩٠٦)

كما دافع بلرمينوس عن حقوق الكنيسة وهو راهب يسوعيّ كذلك اوقف نفسهُ للدفاع عنها بعد أن نصبهُ البابا اقليمس الثامن على الرغم منهُ كردينالاً (سنة ١٥٩٩) . فمن ذلك كتاباتهُ المفعمة حكمةً وصواباً على مدَّعيات ارباب دولة البندقيَّة الذين سنُّوا اثناء السنة ١٦٠٥ سناً جائرة لتذليل الاكليروس والغاء امتيازاتهِ فاستصفوا الاوقاف والقوا في السجن بعض الكهنة وحاكموهم حكماً مدنياً وحاولوا تذكية نفوسهم بمنشورات مخالفة لتعليم الكنيسة . فضرب البابا بولس الخامس بالحرم دولة البنادقة واجاب بلرمينوس على منشوراتهم كاشفاً اقناع عن مزاعمها الباطلة وآرائها السفسطيَّة . فتنمَّر البندقيُّون عليهِ غيظاً وطردوا من تخومهم الرهبان اليسوعيين انتقاماً منهُ . فامتعض لحكمهم الجائر كلّ ذوي الانصاف الى ان توسَّط في الامر الملك هنريكوس الرابع فأصلح ذات البين

بلرمينوس وملك انكلترَّة يعقوب الاوَّل (١٦٠٧-١٦٠٩)

واشهر من ذاك الردود دفاعُ بلرمينوس عن الكنيسة ضدَّ ملك انكلترَّة يعقوب الاوَّل فانَّ هذا الملك كان اوَّلاً يتولَّى على اسكوتلندة وهو ابن ماري ستورات الملكة الكاثوليكيَّة التي قتلتها ظلماً الملكة اليصابات . فلمَّا دُعي ابنُها الى الملك على انكلترَّة أمَّل منهُ الكاثوليك خيراً لكنَّهُ لم يلبث ان خيَّب آمالهم وسار في ظلمهم على طريقة هنريكوس الثامن وابنتهِ اليصابات وكان يتظاهر بمجاملة الكرسي الرسوليّ مموِّهاً عليهِ وكتب لتذكية نفسهِ كتباً مُغفلة ملتبسة المعاني وفرض على الكاثوليك قسماً مخالفاً لدينهم وضميرهم . فقام بلرمينوس وزيَّف تلك الكتابات

وكشف عن خداع كاتبها المستتر تحت اسم مستعار وأن عاد الملك وصرّح باسمه واستأنف الكتابة لتبرير اعماله اجابة بلرمينوس ونقض ما ادّعاهُ لنفسه من الحقوق الدينيّة في دولته كما انهُ أبطل تعاليم البعض من حاشية بلاطه الذين انتصروا لهُ

بلرمينوس والاضاليل الغليكانيّة (١٦١٠–١٦١٢)

كان ملوك اوربّة في القرن السابع عشر لما نالوا من السلطة المطلقة كثيرًا ما يُغالون في رفع منزلتهم فيحملهم الطمع لتأييدها على مظاهرة السلطة الكنسيّة وبخس حقوقها الالهيّة. فمن ذلك ما اشاعهُ في فرنسة بعض المتملّقين للسلطة المدنيّة فعظّموها حتى كادوا يرفعونها فوق السلطة الدينيّة وهي النِحلة التي عُرفت منذ ذاك العهد بالنحلة الغليكانيّة (Gallicanisme) لعبت في فرنسة نيّفاً ومئتي سنة دورًا سيّئاً فلم تُستأصل جذورها الّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد اندفع بلرمينوس لتزييف حججها التي تضمّنها كتابٌ طُبع سنة ١٦٠٩ في انكلترّة وفرنسة فنفى تلك المزاعم بتأليف جليل اثنى عليه سرارا الاحبار الرومانيّون وانّما امتعض منهُ انصار السلطة الملكيّة فنعوا نشرهُ طاقةَ جهدهم

خِدَم شتّى أدّاها بلرمينوس للكنيسة

لم يقتصر بلرمينوس خِدَمهُ للكنيسة على ما سبق ذكرهُ بل افرغ وسعهُ في خدمتها بأعمال أخرى لم تكن دون المذكورة نفعاً كان الطوبويّ يتفرّغ لها في أيام العطلة السنويّة. فمن ذلك ردُّهُ سنة ١٥٨٤ على «متّى فلاك» اللوتراني بخصوص انشاء الحبر الرومانيّ للملكة الرومانيّة المقدّسة بعد ان نزعها من ايدي ملوك الروم الذين فشلوا في حمايتها وسلّمها سنة ٨٠٠ لكرلوس الكبير وذلك بكلّ حقّ وصواب استنادًا الى السلطة التي نالها من الله

وفي السنة ١٥٨٥ نشر تفنيدًا لكتاب آخر ابرزهُ البروتستانت دعوهُ «الاتحاد» حاولوا فيه ان يوفّقوا بين شيعهم المختلفة فانتقد بلرمينوس ذلك التأليف وبيّن ما يحتويه من الآراء الفاسدة المضادّة لدستور ايمان الرسل وتعاليم الآباء حتى بلّغ اضاليلهُ الى ما ينيف على السبعين ضلالًا

ومن تآليفهِ للدفاع عن المعتقدات الكاثوليكيَّة ضدّ بعض تآليف اللوثريين والكلفينيين كتاب في وجوب اكرام الصور المقدَّسة وكتابٌ في سلطان الاحبار الرومانيين في الامور الزمنيَّة

وهو مؤلف ذلك التعليم المسيحيّ المدرسيّ المطوَّل ثمّ المختصر الذي شاع في معظم البلاد الكاثوليكيَّة ظهر السنة ١٥٩٨ باللغة الايطالية ثمّ نُقل الى ٥٤ لغةً بينها العربيَّة والسريانيَّة والكلدانيَّة والارمنيَّة والبرانيَّة والحبشيَّة والفارسيَّة الخ وقد تعدَّدت طبعاتهُ في كلّها فانَّ الترجمة العربيَّة وحدها تكرَّر طبعها عشرين مرَّةً في رومية وباريس وبلجيكة والقدس الشريف وبيروت في مطبعتنا الكاثوليكية فافاد كثيرًا لتلقين الاحداث والشبَّان عقائد الدين القويم

وقد اشتغل بأرمينوس بتصحيح الترجمة اللاتينيَّة من الكتاب المقدَّس وعلَّق على طبعتهِ الرومانيَّة مقدّمةً اوضح فيها بكل حشمةٍ شغلهُ

ومن تاليفهِ المهمَّة التي تشرَّفت بها الكنيسة شروحهُ لمزامير داود في مجلَّد كبير ومنهُ اقتطف الاب بطرس ارنودي الموصلي اليسوعي تفاسيرهُ العربيَّة التي طُبعت في بيروت في ثلثة مجلَّدات في المطبعة الخاصَّة

هذا ولا حاجة ان نسرد هنا اسماء بقيَّة تآليفهِ العلميَّة: كفراماطيقهِ للغة البرانيَّة، واللاهوتيَّة كتآليفهِ في نعمة المسيح والتوفيق بينها وبين الحرّيَّة البشريَّة، والتاريخيَّة كتراجم الكتبة الكنسيين، والخطيبيَّة كمواعظهِ وارشاداتهِ في بلجيكة وايطالية، والروحيَّة كسُلَّم السعادتين وسبعة اقوال المسيح على الصليب وهما الكتابان اللذان عرَّبهما الطيب الذكر المطران غريغوريوس حجَّار رئيس اساقفة صيدا

فمن هذا النظر الاجمالي يتَّضح للقرَّاء ما قدَّمهُ ذاك الرجل فريد عصرهِ من الخدم للدين عمومًا وللكنيسة الكاثوليكيَّة خصوصًا فاستحقَّ ان يُعلن الحبر الاعظم غريغوريوس الخامس بمديحهِ في مجمع الكرادلة اذ نعى اليهم وفاتهُ قائلًا: «انَّ كنيسة الله قد فقدت بهِ رجلًا غاية في الامتياز ولاهوتيًّا مبرّزًا ومحاميًا شجاعًا للايمان الكاثوليكي ومطرقةً للمبتدعين وكان مع ذلك متَّصفًا بكمال التقى والفطنة والتواضع والمحبة المسيحيَّة»